صفعة الغفران

مجموعة قصصية من الحياة

محمد الغتوري

دار البشير للثقافة والعلوم

اسم الكتاب: صفعة الغفران

التأليف: محمد الغتوري

موضوع الكتاب: مجموعة قصصية

عدد الصفحات: 64

عدد الملازم: 4 ملزمة

مقاس الكتاب: 20 x 14

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 19466 /2016

الترقيم الدولي: 978-977-278-575-9

التوزيع والنشر



darelbasheerealla@gmail.com

darelbasheer@hotmail.com

www.darelbasheer.com

01012355714 - 01152806533

١٤٣٩هـ

٢٠١٧م

إهـــداء

إلى السادة الأحباب..
رفقاء دروب الخير..
ينابيع العطاء..

١- دار البشير للثقافة والعلوم
٢- دكتور جمال الجزيري
٣- المستشار أحمد عماشة
٤- الدكتور سيد رشاد
٥- الأديب المبدع صبري حسن
٦- الأديب المبدع عادل بكر
٧- الأديب المبدع عصام الشريف
٨- الصحفي الكبير بسام حميدة
٩- المهندس محمد مرعي (أبو شهاب)
١٠- الأستاذ الصحفي الكبير على الرباعي

-١-

درويش

قبل الفجر يخترق آخر حدود القرية، يخطو سريعًا وكأنه يصارع الزمن، يتعجب لأمره خفير الحراسة، يشير إليه زميله بالتزام الصمت وأن يلوذ بما يخصه من شايٍ وتدفئة حول موقد النار.

يرتديان المعاطف الصوفية الثقيلة؛ فالجو قارس البرودة، مما زادهما حيرة وتعجبًا، فالدرويش يمشي دون نِعال، ولا يرتدي سوى جلبابٍ فقط، مفتوح الصدر متسخ، ولكن طول قامته ومشيته ولحيته وسمرةً وجهه كانت تعطيه هيبة ورًهبة في مُحياه.

لم يستطع الخفير الصمتَ وغلبه الفضول؛ فقال:

- اتفضل الشاي يا شيخ عبد اللَّاه! رايح على فين الساعة دي!!؟

هو اسم ينعته به أهل القرية ولا ينكره هو، عبد اللاه وليس عبد الله! لم يلتفت وكأنه لم يسمع شيئًا! وتقدم في مسيره زاهدًا بالشاي والدفء:

- صُبّ الشاي صُبّ، المجانين في نعيم! ده سارح في ملكوت الله، له في خلقه شئون.

يمشى بعزَّة وكأنه ملك الدنيا وما فيها، لا يذكر الله بلسانه أبدًا.. يصل القرية المجاورة مع بدايات نور الصباح كل من يقابله يحمل

طبقَ فولٍ يضربه بيده يوقعه على الأرض.. طفلًا شابًّا رجلًا بنتًا سيدة.. دون أن ينطق بكلمة واحدة وكأنه لا يسمع صراخهم عليه ولعناتهم التي يصبُّونَها عليه صبًّا، وربما لكَلماتِ أحدهم.. حتى إذا وصل إلى الحانوت (الدكان- المحل) دخل إلى مكان القِدْر. فعل به مثلما فعل بكل الأطباق. وانصرف صامتًا لحالِ سبيله.

اجتمع الجميع حول القدر المسكوب حمدوا الله جميعًا بحثوا عن الدرويش؛ ليشكروه ويقبلوا يديه. وظل الثعبان آية تحكي السر .

- ٢ -

دموع متحجرة

نادرًا ما كنت أرى أبي يُعَبِّرُ عن حُزْنِه الدفينُ بالبكاء، فقد كان دائمًا يمنعُ نَفْسَهُ عن البَوْحِ عمَّا يَجُولُ بخاطره، لربما إن تحدث خفف عن نَفْسِهِ آلامه، تَحَجَّرتَ الدموع في عينيه من أجل تخفيف حِدَّةِ الشقاء بعد العز على أمي وعلينا لكنى كنتُ أشعر به، أعلم حُزنه لتغير حاله من غنىٍ كأمير مُتَوَّجٍ إلى فقيرٍ مُحتاج لا يأْمَنُ نوائِبَ الدهر.

كم هو صعبٌ ومؤلم ذلك التَّحَوُّل، فربما إن كان في الأصل فقيرًا محتاجًا لكسب قوته وقوت بيته يومًا بيوم؛ لم يكن ليشعر بهذا الضعف.

كم توددتُ إليه؛ لأخفف عنه بعضًا من نارِهِ المُسْتَعِرَة التي لم تخبت أبدًا، لكني أيقنتُ أن الشيء الوحيد الذي سَيُخَفِّفُ عنه؛ أَمَلَهُ بي وبإخوتي لعودتنا جميعًا إلى ما كُنَّا فيه من عز ونعيم.

ناشدته بالله أن يتكلم ويبوح ويحكي لنا عن عزه القديم ربما تَذَكُّرُ ما مضى يُسْلِيه، لكن باءت محاولاتي كلها بالفشل وكأن هناك سرًّا يُخذي، وكان هذا السر سببًا في تَحَوُّلِ حاله! وَنَفْسُ الامْتِعاضِ والحسرة وجدتُها في ملامح وجه أمي كلما سألتها عن تغير حالنا وكأنها شاركته ذاك السر! ولم يكن على لسانها حينذاك سوى جملة الاستغفار.. أستغفر الله العظيم، أستغفر الله العظيم.

تيقنت أن السر كان ذنبًا! لكن وإن كان.. فكثير ممن لم يتحول حالهم وظلوا على عزهم وغناهم عاصين معرضين مذنبين، فلماذا كان هذا الذنب سببًا في الهبوط إلى مستوى الطين! بالتأكيد كان ذنبًا ليس كأي ذنب، وربما كان زوالُ النعمة غفرانًا وتكفيرًا عنه. ولكن ظل السؤال يحيرني، أي ذنب هذا الذي ظلت مرارته في حلق أبي وأمي طوال هذه السنوات الطوال؟، ولماذا هذا التشبث بأمل الأبناء لإعادة الأسرة إلى سابق عزها؟ أليس مسموحًا لنا أيضًا بالذنب فنحن بشر ولسنا ملائكة.

وبعد تفكير عميق تيقنت أن الذنب لا يعتبر ذنبًا عاديًّا إن كُشِفَتِ الحُجُبْ وكانت الحقيقة مؤكدة بعين اليقين، فالحسنة والذنب على قدر درجة القرب، وربما كان سبب غفران الذنوب غيبًا كتب علينا حتى حين.

ارقد بسلام أبي آدم فقد رضي الله عنك وغفر لك. ارقدي بسلامٍ أمي الحنون حوَّاء فقد رضي الله عنك وغفر لك .

-٣-

من الحياة

أنا خائفة! هذا صوت أبي يُرهِبُني أعرفه جيدًا، ليتَهُ لا يأتِ، وَيَدَعَ أمي بحيرتها وخوفها الشديد، فحين يتكلم أنكمشُ على نفسي وأبحثُ عن أبعد مكان لأختفي عنه، يريد أن يقتلني بأسرع وقت، لا يرحب بوجودي رغم أن الاختيار كان بيده! هو سبب تكويني هو من جعل أمي تخضع لرغباته الطائشة بمعسول كلماته.

أين كان العقل والضمير وقتها!؟ لا أستطيع أن أقول شيئًا مُشينًا على أبي رغم الأنا التي سيطرت عليه وأعمت بصره وبصيرته، هو الآن يحاول إقناع أمي بقتلي وبيديها، والمسكينة تحاول أن تُطَمْئِن خوفي جاهدة بألا تجعل الكلمات التي لا تختلف عن حد السكين تصل إليَّ! فكلما تحدث أبي تتلمس أمي بطنها وكأنها تربت على كتفي بحنان غير مكتمل وببوح مخنوق! ولكنني أشعر بكل شيء وأسمع كل شيء وتصل دقات قلب أمي الخائف المتلجلج إلى قلبي الصغير فلا يحتمل ويرتجف خوفًا مثلها.

أي ظلم هذا! أي ظلام دامس هذا! ليتني كنت موءودة أيام الجاهلية الأولى! فعلى الأقل كنت معلومة النسب للناس ولم أشعر أني غير مرغوب ولا مرحبٌ بوجودي.. وأنا ما زلت في بطن أمي وينتظرني عالم غامض مظلم مجهول.

كنت أتمنى أن أسمع صوت أبي بحنان ككل من هم مثلي كي أتعود عليه وأحبه قبل أن أراه، كنت أتمنى أن أهنأ بحنان ودلال أمي

وهي تنتظر بشوق رؤيتي بعد شهور حملي، أي ذنب اقترفته كي يكون هذا مصيري!؟

***

- ماذا سنصنع في هذه المصيبة الآن؟ قلت لكِ نتخلص من هذا الحمل مبكرًا. خلاص أنتِ صممتِ الاحتفاظ بالحمل خوفًا على حياتك وخوفًا من اقتراف ذنبين وهذا الهراء ليس لي به شأن! الآن خلصي نفسك بنفسك. ضعي وحدك! أم تريدينني أن أضع معك!؟، حتى ليس معي نقود للطبيب وحتى إن وجدت كيف سأصطحب سيدة ليس لي أي علاقة بها للطبيب؟.

- يا رب ليس لي سواك رغم جُرمي، ساعدني يا الله، خلصني يا رب أنت الرحمن الرحيم، أنت وحدك من تعلم بحالي وغني عني وعن سؤالي.

سأكتم صراخي ما استطعت كي لا يفتضح أمري.. استرني يا رب.. يا رب.

***

- لا يا أمي لا! بالله لا تتركيني بهذا الظلام والبرد وحدي، لا يا أمي.. تعتبرينني بعضًا من القمامة؟

- هذا الفراق على عيني يا حبيبة قلبي، فلقد قتلت نفسي مرتين قبل أن أتركك وحدك بهذا الظلام. وحين سيأخذك صاحب النصيب سيكون قتلى للمرة الثالثة، فلن أستطيع أن أمنعه كأضعف وأتفه حيوان يُحاجي عن ضناه وفلذة كبده، سامحيني يا حبة قلبي؛ فقد وقع كلانا أسيرًا للظلم، ويوم الله سَيُفْصَلُ في الحقوق .

- ٤ -

تجربة الموت

كم تمنيت أن أشعر بشعور الأموات! لكني تداركت شعوري.. وهل يشعر الأموات أصلًا!؟ فبمجرد خروج الروح يصبح الجسد كومة عظم ولحم مثلها مثل ذبيحة الجزار، لكنه نفس المعنى إن أخذ الجسد مخدرًا لا يشعر بشيء رغم استمرار عمله الداخلي من تنفس وعمل للقلب والمخ عدا مراكز الإحساس. هل هذه المنظومة العجيبة الدقيقة مكتملة الكيان تعمل وتفكر وتبدع بمجرد وجود الروح، أو تتبلد وتتعطل تمامًا بمجرد اختفاء السر!

لم أكن مقتنعًا بذلك، وتخيلت الميت يسمع جيدًا ويشعر دون أن يستطيع التعبير. تذكرت سيدة مسكينة مُسنة حركت ذراعها وهي ميتة! نحو جيب عباءتها حين حاولت إحداهن إخراج ما به من متاع لتجهيزها للغُسْل كرد فعل مباشر بعد أن قالت إحداهن: انْظُري ما بجيبها وأخرجيه؟ هذا الموقف هز كياني، ألهذه الدرجة يتشبث الإنسان بالحياة!؟ وكيف لميت سُلبت منه الروح أن يتحرك نحو شيء سمع عنه من حي!؟ حقًّا الموت ليس فناء بل انتقالًا من مرحلة إلى مرحلة حتى الوصول إلى دار القرار.

عمل عقلي الباطن بالموضوع بتركيز حين النوم، بالموتة الصغرى، فقد شُغلت بالموت وقتًا طويلًا حال يقظتي.

- جسدي مُسَجَّى وتنظر إليه روحي على فراش غرفتي. لا حول لي ولا قوة ولا حراك ولا نَفَس ولا فكرة. أسمع جيدًا كل ما يقال حولي، أعترض بشدة وبعصبيتي المعهودة دون بوح! فالوقت المسموح به للكلام لي قد انتهى. يشغلني جدًّا شعور المسافر المُتَعَجِّل الذي لا يبتغي أي غرض معه. فلن ينفع أي شيء يعرفه في هذا الطريق، سوى الرفيق الصالح فقط.

أخيرًا يتحدثون عن غُسْلي (يا فرج الله) لم تكتمل فرحتي فقد قال أحدهم: نجهزه للدفن فَقط حتى يأتي ابنه المغترب ليلقي عليه نظرة الوداع! دعوت الله صامتًا دون حولٍ مِنِّي أن يتم ستري بالتراب بسرعة قبل أن يتأذى أحد الخلائق من رائحتي. فالتراب حِينَئذٍ يستر سوءتي- تمامًا كما كانت تسترني الثياب حيًّا.

- ٥ -

أعماق

أهوى بثقلي غريقًا في أعماق نفسي والبحر..

أحتبس أنفاسي ما استطعت وأخرجها زفيرًا ببطء شديد.. لحظاتي الأخيرة بالحياة خرج كل الهواء بالفعل زفيرًا ولا مجال لهواء آخر.

كم من الوقت سأحتمل بِدون شهيق آخر جديد؟ بدأ الموت يغتالني ولكن من سيموت أولًا بتلك المغارة المظلمة التي لا يعرف مكنونها أحد، ولا حتى هذا البحر المظلم، فهو جزء صغير منها.. من سيموت أولًا من المفردات والمكونات.

بالتأكيد لن يموت كل شيء فجأة سأحاول جهدي ما استطعت سأحضر الأمل والتفاؤل أين الأفكار؟ أين الحيل؟ أين عظيم الحرف والكلم؟ أيموت كل شيء؟! أين علمي وخبرتي؟ أين شهاداتي؟ أأقف ضعيفًا مكتوف الأيدي؟ تنقذني الآن قطعة خشب صماء لا ألقي لها بالًا، ولا قيمة لها! قيمتي الآن أقل من قيمتهاً.. مالي؟ أولادي؟ هل لي.. أم عليّ؟ أراض عني ربي؟ انتهى كل شيء مات الجهد. كم ضعيف أنا وكنت أظنّني قويًّا!! أهي النهاية؟ أأستسلم؟ مهما بلغت من قوة روحية ما عساي أن أفعل؟ أحتاج إلى معجزة. لا أستطيع التحمل أكثر من ذلك لا أدري.. إن حاولت التنفس، سيملأ الماء جوفي.

لقد انتهيت.. انتهيت يا اللـه! كم هي صعبة وثقيلة سكرة الموت!!

ما هذا !؟ يد تجذبني لأعلى!؟

ليتني قلت يا الله من البداية!

ليتني قلتها مبكرًا! لو كنت فعلت لمت مرة واحدة ولم أذق تلك السكرة مرتين.

٦

لُفافةُ تبغٍ ملعونة

هَرِمَ وشاخ هو وحماره، وكانت قلة الاهتمام بالمثل لا تستطيع أن تفرق بين شيخوخة أحدهما دون الآخر، وكانت صفحة الشمس والبراح خارج البيت لهما ملاذًا.

يعبثُ الذُّباب بهما وبرَوَث حماره الذي اختلط القديم الجاف بجديده النَّدِيّ انحنى ظهره حتى كاد يشبه رقم ثمانية! طال شعر حاجبيه حتى تدلى على عينيه وهنًا وضعفًا، ناصع بياض اللحية التي اختفت معظم شعيراتها من معاناة قلة الكرم والعجز. تُخفي عمامته متسخة البياض حكاياتِ العمر الذي بلغ أرذله فلا يعلم من بعد علم شيئًا.

خارت قواه وضَعُفَ بَصَرُه، لكن حب الحياة كان مسيطرًا طاغيًا، يتأمل في كل شيء حوله بصعوبة، لا تودع عينه المارة إلا إذا اختفوا تمامًا عنها. لا يفهم أحد كلماته المهترئة المرتعشة.

يترحم عليه كل من مرَّ به، يساعده من حوله بما تسمح به أنفسهم وترق به قلوبهم عليه من لين الطعام؛ كي تستطيع أن تمضغه لثته عديمة الأسنان! وحين يشعر بشبع معدته، يحن لدخان لفافات التبغ التي كان محترفًا بصنعها في شبابه. لا يفهم أحد ما يريد! إلا زوجته المُسِنَّة التي كانت تزمجر في وجهه دائمًا لعدم نفعه بل ربما تنتظر موته! فهي أرملة مسنة وحيدة مسكينة ربما زاد ذلك نبض الحنان والرحمة

بقلوب أهل الصدقة. شعشعت رائحة الدخان بخياشيمه كلما هَفَت إليه من المقهى المجاور. اضطر بعد عذاب أن يشير بأصبعيه السبابة والوسطى على فمه كإشارة لرغبته الشديدة في لفافة تبغ! ظل على ذلك وقتًا طويلًا يشير إلى كل من يمر عليه تلك الإشارة دون جدوى!! يلاحظ ذلك صبية يلعبون حوله بالكُرة، دائمًا ينهالُ عليهم سِبابًا ولعنات لا تنتهي خوفًا من أن تُصبْهُ الكرة بالأذى.

أراد الصبية الحنوّ عليه أو الانتقام منه! لمعت فكرة شيطانية لأحدهم، أتى بورقة بيضاء وفرك أحد روث الحمار الجافة صانعًا ذلك خليطًا يشبه فتات التبغ! يسمعُ همهماتهم ويرى صنيعهم بصعوبة. يفهم نيتهم!! يعقد عزمه أن يشعل لفافة الروث!! حين يأتوه بها، ويقنع كبرياءه بأن فتات التبغ تمر بمراحل تعفن وتخمر أقل جلالًا من المصنع الذي خرج منه التبغ الجديد! وبعد أن أشعل اللفافة وقاربت على الانتهاء وشُفي من علة رغبته الشديدة في إشعال لفافة تبغ، صب عليهم لعناته ودعواته وأعلن لهم فهمه صنيعهم ومثَّل رميه للفافة، متوعدًا إياهم، وسط رقصات وضحكات الصبية، وتراشق سهام عيونهم التي بَدَت له كومضاتٍ سوداء في فراغٍ مُشَوَّش.

-٧-

موتُ المِغْزَلْ

تعوَّدَ الجُلوس وحيدًا منعزلًا، مُنْكَبًّا على مِغْزَلِه الصغيرِ المسلوب مخروطي الشكل بين يديه، حين عَقَدَ قُرْصُ الشمس نيةَ الاختباء. نحيلٌ جدًّا أَحْنَى ظَهْرَهُ أَرْذَل العُمر. يَنْفشُ صُوفَ الغَنَم بحجْرِ جلْبَابه، يَلُفُّ مغْزَلَهُ بتركيز ليَسْتفيدَ من دَوَرانه في تَقْوِيَة خيط الصوف، الذي يَصْنَعُ منه بعد ذلك طواقي صوفية للفلاحين لا يَعْرِفُها ولا يطيق كَبْسَ الدِّمَاغ بها غيرهم! يلمح بطرف عينه خادم المقابر، من سَيَقُومُ بِغُسْلِهِ وَدَفْنِهِ قريبًا. ينادي عليه بحماس:

- يا شيخُ عبد الواحد، كلمتين من فضلك.

- نَعَمَيْن يا عم سُنُوسي.

- أنا أريدُكَ وأنْتَ تُغَسِّلُني وتَدْفِنُني ابْقَي بالرَّاحة عَلَيّ، أريدك أن تُهَنيني في الدفن، وتجعل لك تروٍ في كل شيء تفعله.

- ربنا يعطيك الصحة وطول العمر، يا عالِم مَنْ سيدفن مَنْ!

- أنا تخطّيت التسعين يا وَلد، اسمع اللي باقول لك عليه.

- حاضر يا عم سنوسي، موت انت بس ولا تحمل هم أي شيء! ليس لي بَرَكة إلا أنت، من عنيا حاضر.

- اسمع يا شيخ عبد الواحد أريد أن أحاسبك الآن على أتعابك! أحسن تِضْحَك على العيال.

- لا يا سيدي لن أضحك عليهم، مثلهم مثل الناس.

- لا سأحاسبك الآن، إنت بتآخذ كم في الراس؟

- مئتي جنيه.

أخذ يعبث في جيب الصديري الذي يستر عظامه تحت جلبابه البلدي، وأخرج مئة جنيه بصعوبة مُسْتكثرًا إياهُم.

- خُذْ يا شيخ عبد الواحد مئة جنيه.

- الحساب مئتي جنيه يا عم سنوسي لو مصمم تدفع بنفسك.

- يا شيخ عبد الواحد أنا رجل نحيف جدًّا، وزني خفيف مثل الريشة. لن تتعب معي مثل الرجل الفَحْل السَّمين.

- صَلِّ على النبي يا حاج سنوسي.

- صلى الله عليه وسلم.

- لما بتركب الأتوبيس تدفع نصف تذكرة أم تذكرة كاملة؟

- لا يا سيدي تذكرة كاملة، لكن الوضع يختلف.

- لا يختلف أبدًا أنا مثل الأتوبيس تمامًا!

مضطرًّا أعطاه باقي المبلغ. وما هي إلا خطوات قليلة حتى وقع الشيخ عبد الواحد أرضًا منتقلًا إلى رحمة الله. هجم عليه العجوزُ لاسترجاعِ ما دَفَعَهُ قبل أن يلاحظ أحد قائلًا:

- الطَمع يُقِلُّ ما جَمَعْ، لا تذكرة ولا نصف! أنت من ركب الأتوبيس يا فالح !

-٨-

صفعةُ الغُفران

يربط بخياله بين مقدمة الرواية لكاتبها الروسي الشهير ديستوفيسكي وبين شعورٍ البراءة والتوبة التي أتت بهما إحداهن إلى محراب راهب الفكر المُخَلِّص؛ حيث نصحها.

يغوصُ بفكرٍ الكاتب ويتقمص شخصيته، يحاول معرفة إن كان- فعلًا- شقيًّا ذليلًا حقيرًا، نكرة لا يهتم به أحد ويفضل الوحدة على الاندماج في حياة الحقيقة الجوفاء الصماء؟ أم أنها عبقرية نادرة أن يعبر الكاتب عن شخصية أخرى بهذا التلبس العجيب.

(أنا رجل مريض.. أنا إنسان خبيث.. لست أملك شيئًا مما يجذب أو يفتن أحسب أنني أعاني مرضًا على أنني لا أفهم من مرضي شيئًا على الإطلاق ولا أعرف على وجه الدقة أين وجعي.. وأنا لا أداوي نفسي ولا داويت نفسي يومًا من الأيام رغم أنني أحترم الطب والأطباء وأنني من ناحية أخرى أؤمن بالخرافات إلى أقصى حد أو قولوا إنني أؤمن بها إلى الحد الذي يكفي لاحترام الطب، إنني أملك من الثقافة ما يكفي لأكون من غير المؤمنين بالخرافات ولكنني أؤمن بها مع ذلك).. هكذا كانت مقدمة رواية الكاتب الشهير.

إحداهن:

- لقد آمنت بكلماتك ووجدت نفسي حقًّا بها ولن أعود إلى ذلك الصنيع وأعرض نفسي بضاعة رخيصة مرة ثانية. لقد كنت محقًّا ولكن ساعدني كي لا أعود.

يرد عليها بمنتهى الحقارة:

– لقد كنت وقتها فقط أمارس الذل عليكِ. لم أكن ذلك الراهب المُخَلِّص المحترم الناصح بل كُنْتُ فقط أريد أن أشعر أن هناك من هو أذل مني وأنني لست أحقر الناس! حتى يهملني الجميع لدرجة عدم رد اعتباري ممن حاولتُ الانتصار لنفسي باحتقارهم! هل هذه هي الشخصية الحقيقية للكاتب؟ أم هو بارع فريد؟

ولكن هناك أحاسيس ومشاعر لا يستطيع وصفها إلا من عايشها بالفعل. كيف يصل إحساسه لهذه اللعنة التي أخرجته من جلده إلى جلد ووجدان من يشعر بهذا الإحساس المؤلم جدًّا وغير الوارد الانزلاق فيه لشخص يعيش حياة كريمة مرفهة. الناصح الأمين كان فقط يريد أن يجد من هو أذل منه كي يسدي إليه نصحًا ويستمتع هو بذل غيره. يبكي الطفل بجواره بشدة، يجذبه من مكانه وزمانه هناك مع دستوفيسكي؛ حيث متعته بين كلمات روايته إلى حيث يجلس.

يحاول أن يتجاهله ويكمل تفكيره في الموضوع ولكنه أصر أن يفسد على أبيه متعته وتركيزه. صفعه برفق ربما يصمت ويكف عن هذا البكاء الأبله الذي أخرجه من محراب فكره. ولكن الطفل بكى بنظرة استعطاف وخوف من أبيه، فتلك هي الأولى التي يضربه فيها. تلك النظرة أصابت الأب بهياج عاطفي وفيض من المشاعر تجاه الطفل، وموجة عارمة من تأنيب الضمير ولوم النفس. واستيقظت

الإنسانيات عنده، فما الذي يساوي شيئًا أمام بكاء طفل بهذه البراءة! طفل انتظر قدومَه بشوق ولهفة! بوقت كان هذا هو أمله الوحيد بالحياة. أَنَسيَ كُل شيء بمجرد حصوله على أمنيته! وصار الطفل المنتظر علىَ شوق؛ شيئًا عاديًّا مما يمتلك. يا للأنانية! وهنا فقط غفر لوالده صفعاته، فربما وقتها كان مثله مشغولًا شغوفًا بشيء، وعكر هو صفوه. وبحنان.. أخذ طفله معه (بخياله) الكائن هناك مع الرواية ولم يتركه (بخياله) هنا حيث يجلس.

-٩-

اليتيم

شَعُر بصوتٍ غريب بصالة شقته! نظر بشاشة المحمول بصعوبة يستكشف الوقت.. إنها الرابعة صباحًا. أنصت جيدًا ليتأكد من الصوت الحذر قام منسَلًّا من الفراش بهدوء كي لا يُقلق زوجته وطفله مشى على السجادة حافي القدمين كلص محترف وضع أذنه على باب غرفة نومه بين خوف ورجاء، مصدق ومكذب.. يا للفجيعة! إن الصوت حقيقي وليس تخيلات ولا أوهام. حقًّا يوجد غرباء بالشقة لصوص مجرمون. أأتركهم يأخذون رزقهم ويرحلون في سلام؟ أأتصل بالشرطة؟ أي شرطة تقصد!؟ فدائمًا يصلون مع آخر كلمة بالتتر.. «النهاية»!!. أأخرج إليهم ربما يفروا هاربين؛ على أساس أنك عنترة العبسي!؟ أغلب الظن سيقتلونك ويكملون عملهم فلن يكلفهم الأمر سوى طعنة نافذة.

زوجته: إنت واقف عند الباب بتعمل إيه يا أبو حسن!؟

أشار إليها بأصبعه على فمه فاتحًا عينيه بشدة محذرًا وبصوت منخفض جدًّا:

- ششششش..... شششششششش

قال في نفسه.. أزفت الآزفة ليس أمامي اختيار الآن إلا الخروج إليهم وإلا لن أرفع عيني أمام زوجتي بعد اليوم. وضع يده على فمها برفق قائلًا:

- فيه حرامية بره في الصالة! مهما حصل لا تخرجي ولا تصرخي، وأغلقي الباب خلفي بالمفتاح.

هي لا تملك اختيارًا، فالرعب قد أصاب تفكيرها بالشلل التام خرج مسرعًا بقلب وَجِل بدقات سريعة مع ارتفاع شديد بالأدرينالين الذي قتله قبل ضربة سكين اللصوص.. آآآآآآآآآآآآآآآآآه خرجت تصرخ وجاءتها قوة لا تعلم مصدرها فليس بعد الروح شيء وإن جاءك اختيار لحظتها: أقاتل أم مقتول؟ ستفضل أن تكون قاتلًا ولو ظلمًا وليس مقتولًا؛ فالحياة غالية وللأسف بعد طعنةٍ صغيرة كانت بجوار زوجها هي الأخرى جثة هامدة، وشتان بين هذا الجوار والجوار الذي يسبق تلك اللحظة بدقائق قليلة.

- يا الله يا سعيد مستني إيه!!؟ بسرعة... بسرعة خلينا نخلع قبل الواغش.

يبكي الطفل متحسسًا صدر أمه! فقد شعر ببرد الفراش وأيقظه الصراخ. يصرخ.. ويصرخ مستغيثًا..

- رايح فين يا راضي!؟

- هخلّص عليه.

- لأ..... لأ

- سيبني يا سعيد أخلص عليه ده مش هيسيبنا! ده إحنا قتلنا أبوه وأمه.

- لأ..... لأ

- طيب نآخده معانا نربيه ونتقي شره

- لأ يا الله، يا الله باقول لك من هنا بسرعة.

من كابينة تليفون بالشارع:

- بوليس النجدة؟ فيه جريمة قتل في نمرة ٦ مصر الجديدة.

ووضع السماعة مرتجفًا يتلصص النظر حوله

- يا الله بينا بسرعة.

بعد وصولهما إلى بر الأمان الزائف وهدوء مصطنع وقلب يهدر بنار جريمة المعصية ومع دخان أزرق معتاد:

- ليه يا سعيد؟ ليه؟ كنت سيبنى أخلص عليه هو هيعيش في الدنيا إزاي.. وليه!؟ من غير أبوه وأمه. هو كده.. كده مات بموت أبوه وأمه يا أخي.... هي هتفرق! واللا حتى كنت سيبني آخده معانا نربيه أهو نتقي شره ونكفر بربايته عن ذنبنا في حقه!

- إنت اسمك إيه يا راضي!؟

- ده وقت هزار إنت كمان؟

- جاوبني بس.

- اسمي زفت.. راضي

- راضي إيه؟

- يا سعيد فكك مني أنا دماغي مش هنا الساعة دي!

- اسمك راضي عطا سعد علي، وأنا اسمي سعيد محمد أحمد حسين. دي الأسماء اللي اختاروها لنا في الملجأ وما يقدروش يحطوا في آخر الاسم الرباعي اسم عيلة أحسن يطلع يشبه اسم عيلة معروفة وكبيرة ويدخّلوا نفسهم في سين وجيم وكتر خيرهم ويشكروا إنهم عملوا لنا اسم أساسًا كنت عايز تقتل الواد مش كفاية يتِّمته وهو رضيع وحرمته من أبوه وأمه! وإنه يتربى في حضنهم وفي عز أبوه مش كفاية إنك يتمته رغم إنك تجرعت نار اليتم وأبوك وأمك عايشين إنت إيه يا أخي!؟......... ده احنا بني آدمين برضه واللا كنت عايز تاخده وتسقيه من نفس كاسك المر! ويفضل الواد طول عمره يتقلب في نار الذل والعار.. إنه معدوم النسب والأهل ويفكر إنه زينا.. أيوه زينا لقيط! يبكى بحرقة لقيط..

- لقيط وجعتك يا راضي وهو ابن أصول وعز الرحمة حلوة يمكن ربنا يتوب علينا ويرحمنا يمكن النار اللي بتآكل فينا من يوم ما فتحنا عنينا على الدنيا تكون كفارة لنا يوم اللقا العظيم. يا راضي من النهارده أنا في طريق وانت في طريق.. تحرم عليه، ويحرم عليه المشي معاك وفي سكتك تاني ومش هاهدى ولا هرتاح إلا أما أطَّمن إن الواد أهل أبوه أو أهل أمه أخدوه يربوه في حضنهم.. أستغفر الله العظيم .

-١٠-

نبع الحياة

يا اللــــه!

طفل يلعب!

أهو جنّي!؟

اثبت

أهي أول مرة؟

نعلم للقبور أسرار

بحق لا إله إلا الله الذي جعل الموت حقًّا

والدفن شريعة نبيه المصطفى

أفسح لنا الطريق لندفن ميتنا وننصرف.

يضحك ببراءة؛ فأول مرة يرى النور وأول مرة يسمع صوتًا غير صوته وهو يلعب حول أمه بعد كل سقاية من نبع الحياة الذي لم يبخل عليه بالسقاء بحق لا إله إلا الله الذي جعل الموت حقًّا والدفن شريعة نبيه المصطفى أفسح لنا الطريق لندفن ميتنا وننصرف.

يحبو نحو الصوت يعبث بقدميه.. يضحك ويضحك ببراءة

لا يستطيع أن ينظر خلفه من الخوف فللقبور أسرار.

يخرج مسرعًا

يُشهد خلق الله يلوذ بالله من شر خلقه

للقبور احترام لا يجوز الدخول إلا تقهقرًا

يراقب أحد الصالحين المشهد

يعلم الأمر.. يريدون إغلاق المقبرة.. والدفن بأخرى

أدفنتم أحد النساء قريبًا؟.

نعم..

فلانة

أكانت حُبلى!؟

نعم ولكن يموت الجنين بموت أمه

أمومتها أبت ذلك واستجار حنانها بالرحمن

وفتح المقبرة بنفسه

وأخرج الجنين.

وهنا فقط.. بكى الجنين بحُرقة

لفراق أمه .

-١١-

مَخَاض.. قصة لابنتي فكرة

شَعُرتُ بأعراض المخاض من سويعات كنت أجهلها سابقًا ولا أعلم لها سببًا أما الآن أصبحتُ خبيرة متمرسة فعندما تأتي بشائره يطول الصمت ويبحر الخيال بلا مَرْسى ويصبح وجهي كسطح الماء الذي طفا عليه كل شيء وضده لا يُفهم له تعابير حزن وفرح، ألم ومرح، كبت وانطلاق وجود واختفاء، يقين وشك صحة ومرض كل شيء ولا شيء! وكي أتخلص من تلك الأعراض المؤلمة؛ أحضرت أدوات المخاض كي لا يكون لي حُجة ها هي ذي الأوراق البيضاء وها هو القلم.. هيا... هيا ولا تترددي هيا تمخضي ودعي عنك آلامك ولا تخشي شيئًا! فمهما كان شكل مولودك؛ فيكفي أنه منك امتداد لك هو من سيرثك ويسمى باسمك وبعد طول انتظار! لم يأت شيء ولم أشهد للمولود شكلًا طويت أدوات المخاض.. (أوراقي والقلم) فقد كان حملًا كاذبًا.

-١٢-

الكَمان

عشقتُ الكمان صغيرًا لشكلها البديع وصوت إيقاعها الكلاسيكي الراقي المحترم الذي يُفصح عن دخائل الإنسان ويعبر عن الفرح والنشوة والأنين والدموع بإبداع منقطع النظير ولم يتسنَّ لي امتلاك ناصية محترفة لإحداهن. نعم أعتَبرها أنثى!! جامحة كفرسة أو مُهرة عربية أصيلة. أعتبرها بحرًا عميقًا مظلمًا كئيبًا أحيانًا رقراقًا هادئًا بديعًا في محتواه أحيانًا أخرى. عشقتها أدمنتها تمنيت أن أركب صهوتها وأنطلق بها إلى آفاق وعوالم مجهولة. أعبر بصوتها عن حزني الدفين وأمراض ذاتي! أصدح بها مع صوت العصافير والبلابل. وعندما امتلكتها محترفة لأول مرة! صُدمت بنشازها.. حشرجة صوتها.. لعنتها!! كسرتها شوهت معالمها وبعد أن هدأت ثورتي، وحل عقلي بصدري، تيقنت أن العيب ليس بالجميلة الرقيقة، بل العيب عندي! أحببتها بل عشقتها بإحساسي، بقلبي، لكني نسيت أنّ لكل وصل قوانينه، نسيت أني لم أتعب بطريقي إليها، فلكل جمال وصل مشقته، وعقدت عزمي أن أبدأ طريقي إليها من جديد، وأتعلم آدابَ وفنَّ التعامل معها وكيفية اعتلاء صهوتها الجامحة، ولعنت كل منكرٍ لرفعتها وإحساسها المتدفق النابض المتجدد. وها أنا ذا اليوم أتوجٍ أخيرًا فارسًا للجميلة. أشعر بنبضها أتنفس رحيق عبيرها وتعبيرها أضمها إلى أحضاني مشتاقًا إليها. أسمع ضحكتها ورقة دموعها التي تسيل على عيني قبلها وقفت على مسرح الحياة لا أسمع ولا

أرى غيرها تعانقنا.. تشابكنا.. أصبحنا سويًّا مقلتين برأس الإبداع والتعبير. بدأت أعزف على أوتار الشجن والحنين لماض وحاضر يئن متعبًا حزينًا بكت فأبكتني. أخرجت حر آهاتي وأوجاعي على نغمات صوتها الذي يتسلل كالدواء برفق حتى شفيت. وانتابني الأمل والتفاؤل بمستقبل تظهر به السعادة من بعيد كسراب صدقت ولم أكذب تعلقت بقشة الغريق. ضحكت لي وسط البكاء أسعدتني.. ولم أنتبه إلا مع التصفيق.

-١٣-

طبيب شعب

شعب خبير ماهر بكل شيء يلعب بالبيضة والحجر ويفهمها قبل أن تطير! ذكي جدًّا ويثق في نفسه فقط. يفهم شخصيات من حوله فورًا، ويكوّن تقريرًا مفصلًا عنهم من نظرة أو كلمة أو موقف صغير، ولكنه اكتشف إنسانًا وحيدًا لا يستطيع فهمه نهائيًّا ولا يستطيع التعامل معه ولا يتصالح معه أو يتعايش معه في سلام. شعب اكتشف أنه لا يعرف ولا يفهم نفسه!

حاول كثيرًا أن يُكَوِّن رأيًا عن نفسه، لكنه كان دائمًا يفشل. يتغير ويتلون كل دقيقة ولا يثبت على حال أبدًا ودائمًا يرى نفسه أحسن واحد في الدنيا ولا يوجد به عيبٌ واحدٌ!! وكل من حوله كذابون ووصوليون ومنافقون ويظن نفسه الوحيد الصالح بينهم! وأصبحت هذه المشكلة تُنغِّص عليه حياته وحتى فكرة الطبيب النفسي ليست في قاموس شعب؛ لأنه لا يثق في أحد ويعتبر نفسه أفهم من الطبيب. ولكنه أخيرًا وبعد مجاهدة استسلم شعب للفكرة وقرر الذهاب للطبيب النفسي بعد أن تحسنت أحواله المادية لربما وجد عنده تشخيصًا وعلاجًا ولو كلمتين لحالته. ودار هذا الحوار بين شعب والطبيب.

الطبيب: أهلًا وسهلًا أستاذ شعب.

شعب: أهلًا بحضرتك يا دكتور. (طبعًا عايز تحلل القرشين)

الطبيب: ها...... خير؟

شعب: (هنبتديها غباوة!.... هو لو كان خير كنت جيت لك؟)

- أبدًا يا دكتور شوية اضطرابات وتوتر وقلق.

الطبيب: كلنا متوترين وقلقانين. اتفضل حضرتك استرخى على الشيزلونج.

شعب: (يعني لازم شويتين السيما دول!)

- شكرًا يا دكتور أنا كده تمام.

الطبيب: زي ما تحب. قل لي بقى إيه المشكلة؟

شعب: (أصدمه وأقول له إني مش واثق فيك وأعمل نفسي عبيط! واللا أحترم نفسي؛ يمكن يكون دكتور شاطر؟)

- الدنيا متلخبطة الواحد ما عدشي عارف الصح من الغلط الناس كلهم انقلب حالهم واتلخبط كيانهم، مفيش مبادئ ولا دين، كل واحد عايز يخطف ويجري، لدرجة انعدام الثقة في الجميع! وكل واحد بيمثل إنه بيفهم وبدرجة دكتور في مهنته وفي الآخر تكتشف إنه لا بيفهم ولا حاجة وكلها قوالب، وكله بيمثل على كله، وكلنا في القاع.

الطبيب: وانت كمان بتمثل يا أستاذ شعب؟

شعب: (يعني هتيجي عليه أنا بقى وهتقف يا دكتور!) أنا بعاني من مشخصاتية المجتمع وانعدام الصدق والثقة ممكن أسأل حضرتك سؤال؟

الطبيب: اتفضل.

شعب: دي جلسة علاج نفسي، حضرتك لابس بدلة شيك.. لكن تقدر تقول لي ليه لابس فوقها بالطو أبيض!؟

الطبيب: (آآآآآه الجنان اشتغل)

- البالطو مزعلك؟ نخلع البالطو.

شعب: لا دي حريتك لكن ده تمثيل وديكور ومنظرة فارغة.

الطبيب: والله يا شعب لا منظره ولا حاجة إحنا مظلومين.. منظر على الفاضي ده أقل صنايعي بيكسب أحسن مننا كمان مستكتر علينا المنظر!؟

شعب: مش معقول يا دكتور الكلام ده.. كشف وعمليات ومستشفى وعيادة!؟

الطبيب: (ده نظام قَرْ بقى)

- مش دكاترة السيكو يا عم شعب! الجراحين بقى والأساتذة.

شعب: هو مش حضرتك أستاذ برضه!! العيادة مكتوب عليها يافطة كبيرة الأستاذ الدكتور. الطبيب: (هو نهار مش فايت.. أنا عارف)

- والله يا شعب يا أخويا أنا معايا الدكتوراه من عشر سنين لكن الأساتذة أولاد ستين في سبعين بإدارة الجامعة واقفين بطريق ترقيتي مع إني أشطر منهم وأستاذهم نفسنة بقى بعيد عنك عالم مريض.

شعب: (كنت عارف من الأول إنك سيكو.. زي حالاتي)

- بُكره تتعدل يا دكتور ولا يهمك.

الطبيب: ونعم بالله، طيب كفاية كده النهارده يا أستاذ شعب ميعاد الجلسة الجاية بنفس الميعاد الأسبوع الجاي.

شعب: (تعالى قابلني يا حيلتها! مش كفاية اللي لهفته الجلسة دي على الفاضي)

- تمام إن شاء الله، شكرًا لحضرتك يا دكتور .

-١٤-

أوجاع

جهاد لا يتحمله ولا يعرفه من عاش مرفّهًا حتى العشرين من عمره ذاك الذي يتجرعه شهدًا رغم مرارته من عرف معنى المسئولية وسقيَ معنى الطموح منذ نعومة أظافره فدائماً يتشرب الأبناء ما قد فشل الآباء في تحقيقه حتى يصبح الأمل مسألة حياة أو موت لا يوجد مزاح من العشرين إلى الثلاثين.

جرى بأقصى سرعة ومشقة وعرق وأمل وصراع وتركيز لا وقت لأي شيء سوى العمل والاجتهاد والسعي، تؤجل كل الأمور الجانبية لا وقت للمجاملات في المناسبات أو مجالسة الأصدقاء أو حتى الشعور بأهمية البناء الآدمي للشخصية من هذا النوع بالقراءة والثقافة ومعرفة كيفية تعاملات الناس فكل هذا يعدو مضيعة للوقت.

إنه طريق واحد أصم وأعمى حتى الوصول إلى الأمل المنشود.. ألا وهو التميز الطاغي المطلق الذي ليس له وجود إلا في عقول ووجدان هؤلاء الذين حولتهم قسوة هذا الطريق إلى أقوى الفلاسفة من شدة احتكاكاتهم مع صنوف البشر سعارٌ من حماس الجري والمنافسة للأفضل فكل من بطريقك هم أنت على أشكال مختلفة وعند نهاية الرحلة إلى سن الثلاثين يقف لالتقاط أنفاسه ويرى المحصلة إلى أين وصل!؟ يقارن ويحصر!! ما نتيجة هذه المذبحة الغير آدمية؟ لا

شيء، لا شقة لا سيارة لا راتب محترم. يتساءل لماذا!؟ فقد سعيت بل هرولت. لا. لا لقد جريت بأقصى طاقتي وسرعتي لماذا لم أُحصِّل شيئًا!! لِمَ هذه النتيجة الغير متوقعة؟

يكتشف أنه زرع في أرض قاحلة لا تنبت..

أرضٌ لا تحب أبناءها البررة الطاهرين المجتهدين تلفظهم تطردهم تكرههم والعجيب أنها تحب أبناءها اللصوص الفجرة الفسقة الحمقى الملاعين!.

لن تنقطع المسيرة ولن ينقطع الأمل؛ فإنهاء الموضوع ليس بيديه التعليم في الصغر كالنقش على الحجر وقد تعلم بل سقي الطموح كما أسلفت وتستقبله أرض بل أراضين أخرى استقبال الفاتحين؛ فالكل يعلم قيمته وتميزه إلا وطنه ينبذه ولا يعترف به إلا بعد أن يشهد له العالم.

وقتها.. يقول ابني فالفشل ليس له أب يعترف به كابن الخطيئة أما النجاح فله ألف أب وأب ينسبونه إليهم .

-١٥-

صغيرٌ بالعُش

تنفس الصبح عبيرًا وطيبًا وفاح عطر الزهور وولج نور الصباح برفق ليمحو ظلام الليل، وبدأ الطير يعزف سيمفونيات التوكل على ربه، ويرتل ألحان الشكر والحمد والتسبيح.

يتسلل الضوء برفق إلى العش عبر فتحته الدائرية الصغيرة، ويجلب معه نفحات من جديد الهواء الذي لا يخلو من بعض ذرات الندى الباردة التي أيقظت سمسم وأخته أريج.

فتحت الصغيرة عينيها، فلم تجد حضن أمها، فأخذت تصيح: سِوْ سو - سو - سو سو، منادية أمها، معلنة حاجتها لحضنها الدافئ، فطمأنها سمسم بقوله:

- لا تقلقي يا حبيبتي، فإن أمك وأباك يقفان على باب العش، وسوف يطيران الآن بالتبادل ليحضرا لنا أطيب الطعام تعالي وانظري من باب العش، ستجدين أمك واقفة على غصن قريب تنتظر عودة أبيك، فهما لا يذهبان سويًّا كي لا نقلق.

نظرت أريج من باب العش بخوف كي لا تسقط منه، فإذا بأمها تقف قريبًا، فاطمأنت، وقالت لسمسم:

- كيف عرفت!؟

فقال لها بلطف:

– سو سو سو سو سو يا حبيبتي، أنا لست أخاف بشدة على نفسي مثلك، فلقد نظرت بالأمس وعرفت تلك الحكاية. انظري يا أريج إلى هذا النهر الجميل وإلى الأشجار حولنا، واسمعي صوت الطيور وانظري كيف تطير وتحلق بين الأغصان دون خوف وبانطلاق.

– لا لا.. إني خائفة، متى ستأتي أمي؟

وما هي إلا لحظات وأتى أبوهما يحمل في منقاره القليل من الطعام ووقف على باب العش ونادى على صغاره.. يا أو ، أو يا أجيج؛ فالطعام في منقاره لم يجعله ينطق الأسماء بفصاحة! فتهلل سمسم سرورًا، وقال:

– ها هو أبوك قد حضر يا أريج.

وسمع ذلك الأب، فبدأ بإطعام أريج، ثم سمسم، ثم أريج وسمسم، حتى انتهى كل ما بمنقاره من طعام، وأخذ يحنو على صغاره بلطف بجناحيه، مداعبًا إياهم وينقر نقرًا خفيفًا على ظهريهما. ثم قال:

– ما بالك أريج! أما زلت خائفة!؟ إذًا؛ فكيف ستصنعين عند تعليمك الطيران ومغادرتك العش أم ستظلين به طيلة حياتك؟

فقالت بلا تردد:

– ليتني يا أبى كذلك.

أما سمسم فقال منتعشًا:

- متى!؟ متى يا أبي ستعلمني الطيران؛ فكم اشتقت إلى ذلك.

- لا تتعجل يا سمسم، فكل شيء سيأتي في حينه، استمتع الآن بطفولتك يا حبيبي، والعب مع أختك، وطمئن خوفها حتى تأتي أمكما.

- حاضر يا أبي، لكن لا تطير قبل أن تعود أمي كما رأيتك بالأمس.

- كيف عرفت ذلك يا شقي؟

- راقبتك بالأمس يا أبي، وعرفت أنك تنتظر على غصن قريب حتى تعود أمي.

- لا تعطلني عن العمل أكثر من ذلك يا سمسم، فربما تظن أمك أني كسلان إن لم تجدني على الغصن حين عودتها.

وقف العصفور يغرد ويسبح الرحمن على الغصن حتى أتت زوجته تلتقط أنفاسها. قابلها بابتسامة رضًا ومداعبة لطيفة بنفضة من جناحيه معلنًا استعداده ليقوم بدوره في العمل حيَّتْه وتحببت إليه بلفتة من رأسها قبل الدخول إلى حبيبها وحبيبتها الصغار بالعش. وما إن دخلت حتى دخلت أريج بحماها وتحت جناحيها، فذاك أفضل من الطعام بالنسبة لها، فبدأت بإطعام سمسم، ونادت على أريج بحركات خفيفة تعني أن أخاك سوف يأكل الطعام وحده إن لم تخرجي. فخرجت تعبث وتنقر جناحي أمها وتتلذذ بالنظر إليها؛ لتستمد الكثير والكثير من حنانها ولتشعر بأمان أكثر ثم بدأت الأم

بإطعامها ما تبقى من سمسم وأخذت الأم تلاعبهما وتلاطفهما كثيرًا فوقت الأم بالعش دائمًا أكثر من وقت الأب.

وظل الأب والأم يتناوبان إطعام الصغار حتى شبعا تمامًا ثم ذهبت الأم لتأكل وبعدها ذهب الأب ثم بقيا على الغصن خارج العش بوقت الظهيرة يتجاذبان أطراف الحديث، يراقبهما الصغار برأسيهما من باب العش، يأنسان بحديثهما عن قدرة الله بالكون تارة، وحديثهما عن صغارهما تارة، وعن الحب والغزل تارة أخرى.

وبمجرد أن تحسنت درجة الحرارة تناوب الأبوان ما قد بدءا به اليوم من إطعام صغارهما وتناولهما أيضًا عشاءهما حتى بدأ الليل يلج النهار. تجمع كل العصافير وأخذوا يرتلون ألحان المساء من ذكر وتسبيح للخالق الرازق معلنين الحمد والشكر ثم أخذ الجميع يصمتون ويخلدون للهدوء انتظارًا لتنفس صبح جديد.

وها هي أريج وسمسم يستمتعان بحضن أبيهما وأمهما الدافئين ينتظران نور الصباح.

-١٦-

حيلةُ عانس

الحضور جميعًا تبدو الفرحة بوجوههم بعُرس ابنة الحارة المُقام بالشارع بالقرية البِكْر الطيبة، عرس خاص بالعروس وحدها لا يحضره زوجها، بليلَة تسبق ليلة الزفاف.

لا توجد فرقة موسيقية، بل عُرسٌ بسيط يعتمد على التصفيق وغناء النساء. الوجوه مركزة على العروس المزينة بشتى أنواع الزينة التي تتناسب مع البيئة! تشبه زينتها تلك التي تزين العروس الحلوى الصغيرة التي يعرضونها بالمولد النبوي. ورغم ابتسامات الجميع والتركيز بوجه العروس إلا أن الجميع غارق في خيالاته.

هذا الشاب يزاحم فكره كلمة متى! متى أتخلص من آلامِ الوحدة ونوم العازب؟ متى ستحل بأحضاني أنثى رقيقة؟ متى أُطْفئ جمر الانتظار! متى ستعتدل الأحوال؟

وهذه فتاة تحلم بالفستان الأبيض وبالفارس الشجاع النبيل الذي سيخطفها على حصانه الأبيض.

وهذه عجوز تتذكر حلو ما مضى وتضحك في نفسها من شقاوة زوجها المسن في شبابه!.

وهذه أرمله نسيت زوجها وتبحث لها عن أي حائط تستند عليه.

وهذا رجل أتى يجامل والد العروس صديقه.

وها هو أحمد بطل القصة يقف وسط هذه المعركة الإنسانية الدافئة الحالمة ينفّذ طلب أبيه بمجاملة جاره نيابة عنه. ليته لم يفعل! النساء تقف على مقربة من العروس والرجال بالخلف تبعد خمس خطوات بتقاليد عجيبة متوارثة وبالطبع تقل المسافة كلما أتت أفواج النساء! كان أحمد يقف بالجانب الأيمن بعيدًا عن التمركز والزحام بالمنتصف، وإذ بفتاة فاتها قطار الزواج وأصبحت في ركاب العوانس تكيد مكيدة عجيبة غريبة كحيلة غير مسبوقة! التفتت إلى الرجال وأخذت تهذي وتصرخ بكلمات تنم عن الشرف والعفة وأنه ما كان يجب أن يقوم رجل محترم بهذا الصنيع الفاحش.

نظر أحمد حوله كي يعرف من هذا الحيوان الذي جرح مشاعر هذه الأنثى المحترمة! ربما بلمسة يد في الخفاء والزحام، فلم يجد سوى رجال مسنين. زادت حيرته همس له الرجل بجواره:

- ماذا صنعت لها!؟ قل لي ولا تبتئس بأذني.. تبدو تحب صدور الدجاج يا لئيم.

- أهي تقصدني أنا!؟

- لا. تقصد أبي! وضحك بسخرية.

- والله لم أقترب حتى منها! وقال بنفسه: يا لك من غبى أَبْلَه، أنت تقف بجواري! زاحم خياله زليخة امرأة العزيز، لكنها لم تكن بهذا

الفُحْش، فلقد توارت عن الأنظار حين راودت يوسف عن نفسه. لماذا تتهمه هذه الفتاة بتلك التهمة البشعة!؟

لم يجد تفسيرًا بلحظتها، وانصرف من فوره حزينا يضرب يداً بيد ويحادث نفسه كمن سُلب عقله! يتصبب عرقًا ويرتجف، وعقد عزمه الأكيد أن يعرف سبب ما حدث. عذب ضميره عن خيالاته الطويلة التي كان لها متنفسها الشرعي في أحلامه، وعلم بعد حين أنها كانت مجرد حيلة رخيصة من عانس بائسة يائسة لِلَفْت الأنظار إليها بأنها صاحبة العفة والعصمة.

- ١٧ -

صديقهُ البخيل

أَرَادَ حازم أَنْ يَخْرُجَ مِن حَالَةِ مِزَاجِهِ السَّيئ؛ فقرر أن يَبيتَ ليلتَهُ مع صديقه رضا المعروف لَدَى كل زملائه وأصدقائه بِبُخْلِه الشديد. ربما تَحَسَّنَتْ حالته المزاجية! من حَرَكَاتِ بُخْلِ صديقِهِ الملعونة؛ فحازم يضحك ويسخر بشدة من كل كلمات وأَفعال صديقه البخيل؛ لذا حَرِصَ كل الحرص على استمرار الصداقة معه، كي يظل له منْبَعًا للضَّحِك وتغيير حالته إن أصابَهُ الملل أو الضَّجَر أو الحُزن ولكن صديقه رضا البخيل كان يضيق به ذرعًا كلما ضحك من أقواله أو أيٍّ من صنيعه، فكثيرًا ما قَرَّر الابتعاد عن حازم الذي لا يَكُف عن السخريةِ منه.

ولكن حازم كان دائمًا يُغْريه بشيء غير معتادٍ هُوَ عليه! لتستمر الصَّداقة مثلما فعل الليلة حين الذهاب إليه.

رضا يعيش وحيدًا بشقته المتواضعة جدًّا، يأكل في نفسه غيظًا بسبب قيمة فاتورة الكهرباء، بعد أن أطفأ كل شيء له علاقة بالكهرباء! جالسًا بالصالون على ضوء شمعه، يَتَحَسَّر.

- ميتين وثمانين جنيه!؟ ليه!؟ يا خراب بيتك يا رضا!

يدق حازم جرس الباب فلا يعمل فقد فَصَلَهُ رضا أيضًا! يضحك حازم ويقول حتى جرس الباب يا بخيل، ده الجاحظ لو كان عايش حتى الآن كان زمانه انتحر بسببك!

يدق الباب بقوة، ثم يرفع لفافة المشويات بيده إلى العين السحرية، ظاهرًا اسم صانع الكباب الشهير! كي يُسَيِّلَ لُعَاب رضا حتى يوافق أن يفتح له الباب!

- كفاية دق على الباب. يا رب يجيلك خابط في دماغك يا اللي بتخبط! الرحمة يا ناس، الباب اشتكى!

ينظر من العين السحرية أولًا قبل أن يسأل من الطارق؟ فيجد لفافة كبيرة مكتوب عليها اسم صانع الكباب الشهير. كاد قلبه أن يتوقف من الخوف! وبصوت متلجلجٍ مرتجفٍ.. قال:

- أنا لم أطلب أكل يا عم! أنت أكيد غلطان في الشقة.

يغير حازم صوته ويُقَلِّد عامل توصيل الطلبات للمنازل؛ فيقول:

- مش دي برضه شقة رضا بيه؟

يضرب رضا خديه بكلتا يديه.

- لا. دي شقة رضا زفت! وأنت تريد شقة رضا بيه.

يضحك حازم ويقول بصوته العادي:

- طيب افتح يا رضا زفت هذا الكباب من أجلك مجانًا يا بخيل.

يبتسم من المفاجأة، وتلمع عيناه فرحًا ويقول بصوت منخفض:

- حازم معقولة!!

- افتح يا ابني انت ستتركني واقفًا على الباب كده!

يفتح رضا الباب وبيده الشمعة.

- يخرب بيت البخل! إنت قاعد على نور الشمعة يا بخيل! مش قادر تولع لمبة موفرة حتى.

- اسكت يا حازم سيبنى في الْهَم اللي أنا فيه! فاتورة الكهرباء أتت هذا الشهر ميتين وثمانين جنيه! ألاقيها منين واللا منين بس؟ وبعدين أكلة الكباب دي محتاجة جو شاعري على ضوء الشموع.

حازم بابتسامة ساخرة:

- أيوه، أيوه عليَّه أنا الكلام ده؟ قل لي يا سامح الكباب ده بكم على كده؟ بمائة وثمانين جنيه يا بخيل.. ويضحك.

- ماشي يا عم المبذر، استريح على ما أجهز الكباب في المطبخ بالأطباق.

- ماشي بس اوعى تخلص عليه لوحدك!

رضا يتحسر على قيمة الكباب بطريقه للمطبخ ويقول.. وهان عليك يا مفتري تدفع المبلغ الضخم ده في عشوة! وربط اللفافة ووضعها جانبًا وأحضر قطعة جبن صغيرة ورغيفٍ واحدٍ! وأقنع حازم بالنوم الخفيف؛ كي لا تأتيه الكوابيس على أن يبيت عنده ويكون الكباب في غداء اليوم التالي. وما إن نام حازم حتى اسْتَلَّ اللفافة وخرج بها منطلقًا إلى محل صانع الكباب الشهير مطالبًا إياه بقيمتها وإلا سيفضحهم. ويقول إنهم يصنعون المفروم من لحم الحمير! يبتسم خارج المحل وهو يُحْصِرُ النقود قائلًا: اللهم ارزقني بصديق آخر مُغَفَّل، ويكون معه عشاءَ ولو بمائة جنيه فقط لا غير؛ كي تكتمل قيمة فاتورة الكهرباء! ودعوة المظلوم لا تُرَد!

- ١٨ -

افتح عينك تأكل ملبن

تُرى مَنْ ينتصر.. صاحبُ الفكرة، أم صاحبُ رأس المال؟ دائماً يصطحبُ صديقهُ الفقير ذا العقل الراجح واللسان المادح والفكر الصادح، في كلِّ تحركاتِه كَمُكَمِّلٍ إنساني لا تستقيم له الحياة بدونه. تقف السيدة الثقيلة بصعوبة، بجلبابها الأسود الفضفاض الذي يحوي بقعة تُرابية كبيرة جدًّا من أثر جلوسها على الأرض، كلما اقترب أحد رواد المَلْهَى من نُصْب بنادق الخرطوش الصغير وقطع المتفجرات الورقية كروية الشكل الصغيرة (البومب) التي تم توزيعها بحرفية بالغة. بعضها على أسلاك، وبعضها على قرص إطار دَرَّاجة فارغ من القطعة المطاطية، وأحدها على غطاء رأس حديدي مقلوب، والبعض الآخر تم توزيعه على عروسة حديديةٍ صغيرة بشكل مُحْرِجٍ جدًّا!! تُهَلِّلُ السيدة «قرَّب.. قرَّب.. قرَّب، فتح عينك تأكل ملبن»

شكلها العام يُدْمي القلب، خاصة بظهور إيشاربها المتسخ الذي دفنت بلُفَافَتِهِ العجيبة بقايا شعرها، والذي لا يستر رقبتها السوداء بالشكل الكافي.

هَمَسَ إليه صاحبُ الفكرة بالابتعاد عن النيشان على العروسة منعًا للإحراج! ولكنه وجد في عكس الفكرة متعة وإثارة، فلم يُصَوِّبْ إلا عليها! بدأ برأسها وأصاب الهدف، استمهلته السيدة حتى تضع متفجرة صغيرة مكان التي أصابها ربما استحضر دماءَهُ وحياءه

وصوب على الرأسِ دائمًا. ولكنه استطرد التصويب إلى أسفل، وكان يُصيبُ الهدفَ بكلِّ مرةٍ، وكانت السيدة تضع المتفجرات الصغيرة مكان التي فَجَّرَها راضية، منصاعة، مستكينة، دون أي تعليق منها ولم يُفْلِتْ- هو- هدفًا صوب عليه مع ابتسامات خبيثةٍ مكتومة.

انفجرت الابتسامات ضحكًا بعد انصرافهما مباشرةً..

- أرأيت صاحبك؟

- نعم، جامد جدًّا! ككناية عن موت المشاعر الإنسانية لديه.

- هل كانت السيدة في حَرَجْ؟

- نعم بالتأكيد.

- ومن يُكْرِهُهَا على هذا العمل؟

- أكلُ الخُبْزِ مُرٌّ يا صديقي، لكن دعك من هذا الآن.

- وبأي شيء أُمْسِكُ إذًا؟

- إنك ماهرٌ بهذه اللعبة، لِمَ لا تشترى بندقية صيد؟

- والله فكرة.

وبعد عدة أيام خرجا سويًّا في رحلة صيد. كل طلقة خرطوش بطائر أو سمكة من تلك التي تقترب من حافة النهر! لا يُفْلِتُ نيشانه أبدًا! وكانت مهمة صاحب الفكرة أن يجمع الطيور بالحقيبة بعد ذبحها وبالطبع الأسماك، وبانتهاء اليوم كان لديهما محصولٌ وفير.

صاحب الفكرة:

- هيا نقتسم المحصول يا صديقي.

صاحب رأس المال:

- نقتسم! نصيبك ما أفيض به عليك.

- نصيبي هو النصف؛ فأنا صاحب الفكرة.

- الفكرة ليست هي الأساس بل الأهم هو تنفيذ الفكرة.

- ولكن بدون الفكرة لم يكن ليتحقق شيء.

- هل أعطينا لصاحب محل البنادق فكرة كثمنٍ للبندقية!؟

- لا عليك يا صديقي، اقتنعت بكلامك. لدي فكرة منصفة لتقسيم المحصول.

- هاتِ ما عندك.

- أنت ماهر جدًّا بالنيشان، وأنا أثق بك لأنك صديقي. سأضع هذه البرتقالة على رأسي، وأستند على تلك الشجرة وعليك أن تصوب نحو البرتقالة.

- ألا تخافُ على نفسك!؟

- أخاف بالطبع؛ لكني أثق بمهارتك، والأمان في صداقتك.

- هل توافق؟

- نعم أوافق، لكن أخبرني ما هي فكرتك لتقسيم المحصول؟

- إن أتت الطلقة بالنصف العلوي للبرتقالة سيكون نصيبي الثلث، وإن أتت بالمنتصف تمامًا سيكون نصيبي النصف، وإن أتت بالنصف السفلي سيكون نصيبي الثلثين.

- وإن أتت في جبهتك!؟

- سيكون المحصول كله من نصيبي.

- يا لك من طماع! وإن أتت بعينك؟

- ستكون البندقية والمحصول من نصيبي.

- أتضحي بعينك من أجل شيءٍ يسير!؟.

- لا، فأنا أثق بمهارتك جدًّا، وأعلم بل متأكد أنك ستصيب البرتقالة بالمكان الذي تريد تمامًا، هل توافق على الفكرة؟

- نعم أوافق، هيا.. قف واستند على الشجرة.

وبعد التصويب والإطلاق، كانت الطلقة من نصيب الشجرة بعد أن مرَّت فوق البرتقالة تمامًا! صاحب الفكرة:

- لم نتفق على هذا الاحتمال فقد كان مستبعدًا.

صاحب رأس المال:

- مستبعدٌ؛ لأنك لا تمتلك الفكرة! الآن أنا صاحب رأس المال وصاحب الفكرة، ونصيبك كما أسلفت، إن كان يعجبك!

-١٩-

خدعة لطيفة

لاحظ صديقي النبيل تكتمًا شديدًا عن أي بوح بحبي الكبير، فعقد عزمه أن يداعب كتماني!! كنا نتجاذب أطراف الحديث بالشقة التي استأجرناها بجوار كلية الهندسة مع ثلاثة آخرين من الزملاء! بمتناول أيدينا على الطاولة خبز العشاء لنا جميعًا.. عشرون رغيفًا بلديًّا، كَالِحِي اللون، لما تحويه من دقيق ليس كامل النظافة، وفُتات فتلات جوال الدقيق، ولا يخلو الأمر من بعض الحصوات وربما ما يلزم من ذرات حديد!

تركيز تام في المادة العلمية الجافة من أي نوع من أنواع الجمال الأدبي، سوى خيالات عقيمة محددة لا يصح معها أبدًا إلا التركيز بها فقط. ولم يخفف من حدتها سوى إخراج الغيظ على الخبز! نادى زميلنا مُساعِد علينا:

- العشاء جاهز احضرا هنا مع الخبز.

نظرنا إلى مكان الخبز بالطاولة، ثم نظر بعضنا لبعض، ووقعنا على الأرض ضحكًا من المفاجأة!! لقد التهمنا العشرين رغيفًا دون أن ندري!! على سهوة وغفلة! يا لفتوة الشباب! بالطبع لم نسلم من ضرب ومزاح الزملاء.

وبعد انتهاء مراسم العشاء، أعلن صديقي التحدي أنه باستطاعته أن يسخر الجن لمعرفة اسم حبيبتي! قبلت التحدي ساخرًا، وَلِشَكِّي

باحتمال نجاح حيلته جعلت التحدي على معرفة اسم ابن عمي. وافق الجميع أتى بورقة وقلم وقال:

- اكتب أي معلومات عن ابن عمك الذي تقصد وبالطبع إلا اسمه.

فعلت كما طلب منصاعًا راضيًا. قال:

- أطبق الورقة فلا أريد رؤية ما كتبته.. لكن الصدق هنا أساس اللعبة أي يجب أن تكون بالفعل كتبت بيانات صحيحة عن ابن عمك.

قلت: نعم وأقسم على ذلك.

ذهب إلى المطبخ وأحضر كوب ماء وقداحة. ثم أطفأ الأنوار وأخذ يهذي بكلمات المشعوذين، وكأنها طلاسم خاصة! وكان ضمن الطلاسم كلمات تثير الشك.. يا فنكوش، يا حنكوش، يا ملطوش، يا أولاد البرطوش، كلوا كتير بس ما تخفوش! قال:

- استدر واكتب على ذراعك بهذا الماء السحري اسم ابن عمك ونحن هكذا بالظلام.

فعلت كما طلب، ثم قال:

- احرق الورقة بالقداحة.

وحين أصبحت رمادًا أسود، فركها بين يديه وافترش ترابها على ذراعي ومسح عليه ذهابًا وإيابًا ثم قام بنفض التراب عن ذراعي

وأشعل الأنوار من جديد، فإذا باسم ابن عمى يظهر مكتوبًا بتراب ورقته السحرية المحترقة واضحًا تمامًا على ذراعي!.

جن جنوني!! لقلة الخبرة وقتها بهذه الألاعيب... كيف ذلك؟ أكمل الفيلم بطلبه حفظ سره وعدته بذلك ولم أنم ليلتها من الخوف!.

لقد كان بالغرفة جني منذ قليل، وحين أفقت من تصديق الخزعبلات وعملت النزعة العلمية وفهم (مزاح الأصدقاء!) ناديته صباحًا بالمدرج بضحك غير منقطع:

- واد يا نبيل أنت هتصيع!! قر واعترف.. لم أنم طوال الليل.

ضحك هو الآخر دون انقطاع وقال:

أضفت السكر بتركيز عالٍ بالماء وحين كتبت أنت اسم ابن عمك وتوهمت جفاف الماء السحري التصقت وجفت ذرات السكر بذراعك كاتبة الاسم وبالطبع التصق بها تراب ورقة التعويذة.

ونال نصيبه المسكين من اللكمات بما يكفي وسط سخرية وضحك.

-٢٠-

شجرة الصفصاف والنهر

حكايات الصغر بالريف نراها الآن أنها كانت نوعًا خاصًّا من الترف والمغامرة الممتعة بدون أي تكلفة.

كان الصغار يستمتعون باللعب وبالألعاب المجانية التي اخترعوها بأنفسهم مثل (استغماية.. العقلة والمضرب... شيخ تروان الآل... الأوتوموبيل بأغطية الكولا... المنديل... عنكب يا عنكب... ملك وكتابة.. الخ). هذا غير الألعاب الموسمية مثل اللعب على قش الأرز عسكر وحرامية في موسم البرسيم الجاف (الدريس) وعشش قش الذرة في رمضان، والمشي خلف المسحراتي والاستمتاع برنة الطبلة التي لا تسمع إلا في رمضان. بالإضافة إلى صيد الأسماك بالصنارة من الترعة، وطبعًا السباحة بالترعة التي توقفت عندما قال المعلم محمد رضا للواد عبد السلام:

- طول ما ندي ضهرنا للترعة عُمر البلهارسيا في جتتنا ما ترعى.

قال يعني الفلاح سَيَكُف عن ري أرضه حافي القدمين وسيتوقف عن فتح القناية بيده وسيتوقف عن نزول الترعة يمسك السمك بيديه عندما يقل ماء الترعة!! طبعًا كل المغامرات المائية هذه لم يكن لي علاقة بها نهائيًّا؛ فلم يعجبني منها شيء سوى الصيد بالصنارة جهزت الغابة (البوصة.. عصا طويلة) من فوق سطح المنزل.

كانت البيوت كلها كذلك تقريبًا من الطوب الني (الأخضر-

اللبن). وربما كان عدد البنائين بالقرية لا يتعدى اثنين وكانوا يصنعون الطوب بأنفسهم من الطمي المخمر بالتبن (أعواد القمح اليابسة المقطعة قطع صغيرة). ويتولى بعد ذلك أهل البيت أعمال اللياثة.

صباح يوم رائع، مغامرة صيد، لأول مره بحياتي ذهبت لعم أحمد، الوحيد بالقرية الذى يبيع الصنارة اللطش والغماز والخيط والثقال، أو الرصاصة وكل هذه الأدوات بقرشين صاغ ونصف. معلش يا عم أحمد ممكن تركب لي الحاجات دي وتربطها لي في الغابة.

- كمان! ماشي يا عم لكن لا تتعود على ذلك.

- حاضر.

بابتسامة ليست بريئة خوفًا من طلب أجر على ذلك امتلكت الدنيا وما فيها بامتلاكي لهذه الصنارة البسيطة جدًّا مع البراءة والانطلاق، مع الرغبة الملحة للمغامرة كأي شاب صغير. نسيت الفطور وجريت إلى الحقل (الغيط) يا سلام على منظر الحقل في الصباح الباكر، ورائحته وهوائه النقي والشمس تشرق على المساحات الخضراء الشاسعة، رائحة التراب الشراقي عندما تختلط بماء الري، منظر قطرات الندى كحبات اللؤلؤ على أوراق شجر التوت أصوات العصافير والبلابل مع صوت الساقية وخرير الماء المتدفق منها تعطي الروح والقوة للحيوان الذي يدور بالساقية: (جاموسة- بغل- وأحيانا الحمار أو الحصان). منظر الفلاحين وهم يذهبون إلى الحقل مشيًا على الأقدام أو راكبي الحمير. يسحبون ماشيتهم التي يخرج البخار من فوق

روثهم معلنًا الحرية للبهيمة التي لا تفقه شيئًا.

تأملت الأماكن على حافة الترعة وشد انتباهي مكان أكثر من رائع بجوار شجرة غاية في الجمال والروعة، لوحة فنية لمبدع الكون جذعها كبير، وارتفاعها معتدل، متناسقة ومتماثلة الأغصان، أوراقها رفيعة وطويلة وفروعها رفيعة رخوة وطويلة جدًّا. تشبه شعرًا طويلًا جدًّا برأس سيدة حسناء.

إذا قطعت فرعًا ولوحت به في الهواء كأنه كرباج صنع صوته. وإذا خدشته رائحته جميلة، وملمسه لزج وطعمه مر (نعم وضعته على طرف لساني!) تتدلى الأفرع على سطح الماء كثيرة ورفيعة وربما غرق تحت الماء من طوله، ويأخذ اتجاه سريان الماء وتموجاته الخفيفة. عشش عليها العصافير، وطوال الوقت تسمع زقزقة العصافير وهي تروح وتأتي بالطعام لصغارها. أو عصافير تتحدث إلى أقرانها وكأنهم يتشاورون في أمور حياتهم. إنها الشجرة العظيمة الجميلة الرائعة (شجرة الصفصاف) بعد أن اخترت المكان، ذهبت لالتقاط الطُّعْم، وكان عبارة عن ديدان الطمي. صنعت كرة من الطمي وبها حفرة صغيرة ووضعت الطعم وأحكمت الغلق. عمرت الصنارة وجلست بجوار شجرة الصفصاف أمسك بالصنارة، وتسمرت عيناي على الغماز، بانتظار أن يسعدني الحظ بسمكة كبيرة.

لم أكن أعلم أن الترع الصغيرة لا يأتي إليها بهذه المياه الضحلة سوى أسماك البلطي الصغيرة، أو القراميط إذا كانت المياه راكدة.

كانت الترعة بذلك الوقت بكرًا، لم تتلوث بالنفايات والقاذورات أو حتى النباتات المائية، كان الماء ينساب وتعرف اتجاه وسرعة الماء من أي شيء عالق ولو بسيط، كقشة صغيرة مثلًا. وبدأت تداعب الصنارة بعض السميكات الصغيرة وبدأ الغماز يغوص. توقف قلبي لحظيًّا من شدة الفرحة، شابَ عشر سنوات وأول تجربة بالصيد أخرجت الخيط، فإذا بسميكة صغيرة سلكت فمها، ووضعتها بجواري بعيدًا عن حافة الترعة، فإذا بها تقفز في الهواء وتنثني، في محاولة للرجوع للماء. ولكن هيهات، ستكون ومن تليها من سميكات بمثابة جواز نجاتي أو تشفع لي من علقة ساخنة من السيد الوالد بسبب هذه المغامرة. وكأني رتبت النجاة بأني سأقول له إنني كبرت والدليل أنني عرفت أصطاد.

وجالت بخاطري قصص جدتي عن الجِنِّيَة أمّ الشعور الطويلة التي تشد كل من يقترب من الترعة لإغراقه! وتمثلت لي أفرع شجرة الصفصاف وكأنها شعور الجنية تسبح فوق سطح الماء. وبدأت أنتبه وأشعر بالجوع لم تكن مشكلة نهائيًّا، التقطتُ بعضًا من الخس وغسلته وتناولته وحليت ببعض التوت. وشربت من طلمبة ماء الورد، ورجعت طائرًا من الفرحة متوجسًا خيفة من العلقة المرتقبة.

-٢١-

تعدد الأزواج

المكان: منظمة الحريات الإنسانية والمعتقدات الدينية.

الزمان: ٢٠١٦ بعد الميلاد.

عضو: سيدي لديَّ مقترحٌ يستحق الدراسة والمناقشة.

مدير المنظمة: مقترحٌ ديني أم إنساني يا سيد Free ؟

- إنساني يا سيدي الـ Boss

- كم أشتاق لمقترحاتك التي تثري حرية الإنسانية بعد أن نجحت منظمتنا العريقة في الترويج لزواج المثليين وزواج الإنسان بالحيوان والعكس، وحريات الإنجاب من بنوك الحيوانات المنوية، وكذلك نظام استئجار الأرحام واختيار جنس الجنين وكذلك مواصفاته الوراثية.

- وكذلك سيدي نجحت منظمتنا جدًّا بالشق الثاني من اسمها.. حرية المعتقدات الدينية؛ فقد نشرنا فكر الإلحاد على أعلى المستويات بين الشباب المثقف ونفرناهم من الثلاثة أديان المشهورة والتي تدَّعي كل ديانة منهم أن الجنَّة لديها وحدها دون سواها! وأن المجد ونعيم الخلود سيكون لأتباعها فقط وباقي الديانات ستذهب جميعًا للجحيم وكل أتباعها.

- دعك من هذا الهُراء والعبث وهاتِ ما عندك، فما هي إلا حياتنا

الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر. أين هذا الإله الذي يترك مملكته غابة يعبث القوي بها كما يشاء بالضعيف، أين كان يلهو حين يأكل الفقراء من أكوام القمامة!؟ أم كان مشغولًا بتزيين الحوريات الحِسان لمن آمن به وقت إلقاء القنابل النووية على هيروشيما ونجازاكي.

- سيدي أراك غاضبًا في حديثك وشديد التركيز وهذا بلغة الجسد يعني الكثير الذي ليس من شأنه صالح منظمتنا العريقة.

- صدقت يا سيد Free أيها الداهية المتنكر بصورة إنسان.. إذًا فلنغير الموضوع، أتْحِفني بما أتيت من أجله.

- تعدد الأزواج سيدي الـ Boss

- تقصد تعدد الزوجات مثل نظام المسلمين الذي ابتدعه سيدهم!.

- لا سيدي بل أقصد ما قلت تمامًا.

- كيف لامرأة واحدة بأكثر من زوج!؟ أجُنِنتَ يا سيد Free ؟

- سيدي ال Boss تمهل قليلًا.. أليس هذا هو الحال في الخفاء والذي يعلمه عنَّا هؤلاء الحمقى أصحاب الديانات وخاصة الإسلامية ؟ وينعتوننا بأولاد العاهرات ظنًّا منهم العُهر بكل نسائنا!؟

- نعم صدقت يا سيد Free ، هذه حقيقة وأنا كما تعلم لا أحترم ولا أصدق إلا الحقائق مهما تكن قاسية.

– إذًا سيدي؛ فلنجعلها بشكل رسمي وقانوني، ونَهَبَ من أجل الإعمال بهذا القانون الهِبات والعطايا والمعونات.

– نعم يا سيد Free لكن.. لكن إذا أنجبت المرأة فلمن سيُنسب الطفل؟

– لأبيه سيدي الـ Boss

– إمممم.. أتقصد!.. أتقصد؟

– نعم هو ذاك، سيكشف تحليل الـ DNA بل سيعلن بشكلٍ قطعي عن اسم الأب.

– لكن أتعتقد أن النساء ستوافقن على تعدد الأزواج بشكلٍ مُعْلَن؟

– هذا ما تتمناه كل امرأةٍ سيدي بدلًا من اختلاق الأعذار الواهية لأزواجهن الذين لا يتعدونَ كونهم خيالات مآتة ولا يقومون بالمُناطِ منهم من واجبات زوجية بسبب المرض أو العجز أو كبر السن! وكذلك الأزواج سينعمون جدًّا بهذا القانون الذي سيبرر لهم أيضًا تعدد الزوجات بلا مشاكل أو حتى تعدد العشيقات.

– أتظن ذلك يا سيد Free ؟

– سيدي كَفَانا قيودًا، ولنجعل المجد للإله الحق يسود العالم.. الحرية المُطْلَقَة .

-٢٢-

تلاعبني ريست!؟

بالمُدَرَّج بين المحاضرات كان يَقِف مع بنات الدُّفْعة الجميلات. لم يكن ذاك الشاب الذي ترغب به البنات شكلًا أو موضوعًا، معروف أن جميلات الإناث قليل مِنْهُنَّ من تَصِلْنَ إلى إحدى كليات القمة، فكان عدد جميلات الدفعة تُعَدُّ على الأصابع والباقيات صالِحاتٌ كالعادة، فغالبًا البنت الجميلة لا تعبأ- كثيرًا- بالمذاكرة، وتحصيل العلم، فلها اهتماماتٌ أُخْرى.

وفى هذه الحُقبة العُمْرية دائمًا تتعلق أفئدة الشباب بالجميلات ولا يعنيهم أي شيء آخر، كثقافة أو تَدَيُّن. يبحث كل شاب يريد أن يحظى بكلمة أو ابتسامة عن قُرْب من إحداهن على ألف سبب وسبب لذلك! يُخْلصُ الجميع في تقديم أي خدمة لهن، وشرف كبير وفوز عظيم إن تَمَّ تكليف أحد الشباب بعمل أي شيء من أجل إحدى الجميلات.

واتَتْني فرصة عظيمة؛ لِأَقِفَ بمَحْضَر كل الجميلات مع هذا الشاب المحظوظ ذي الطريقة السحرية لجذبهن. بالحديث عن بطولاته وقوته ومهارته بلعبة التايكوندو، وكلما فَتَحْتُ حوارًا آخر بعيدًا عن حوار نجمه الساطع، لم أجد صَدَى يُذْكَرُ على وجوههن، فالإناث يعشقن الشاب القوى مهما تظاهرن بأن الشاب الحالم الرومانسي أفضل! لم أجد حيلة لإنهاء تلك المهزلة الشبابية إلا بهذه الجملة وسط صولات، وجولات، وحكايات هذا الشاب:

- تلاعِبُني ريسْت؟

وهنا فقط تحولت كل عيون الجميلات إليَّ! يا لَـ التَّفَاهة! وجميعهن بصوت واحد:

- واااااااااو.

كان رد فعل هذا الزميل استهتارًا وتعاليًا وتكَبُّرًا واستهانة وقال سائلًا:

- أنت بتلعب إيه؟

رددْتُّ عليه بمِثل أسلوبه، فالتَّكَبُّر على أهلِ الكِبْر محمودٌ:

- لا ألعب شيئًا فقط ألعب في شَعري حين أُمَشِّطُه.

انتفخت أوداجُهُ حُمْرَةً وغيظًا وقال:

- خلاص ننظم دورة ريست وسألعب فقط مع الفائز!

كَحِيلَةٍ ذكية مِنْهُ كي لا يُصْدَم ويخسر مكانته عند جميلات الإناث. وافقت فورًا طار الخبر كالنار في الهشيم ووصل أصدقائي «الكواحيل». وبسرعة البرق، تم تنظيم الدورة. هَزَمْتُ قبله عشرة من الزملاء وحان دوره، وسط تصفيق البنين وإعجاب شديد من الجميلات بحَرٍّ وسُخُونة اللُّعْبة. وقفنا سويًّا مُتَعَادِلَيْن قُرابة الخَمْس دقائق دونَ مُبالغة! والطاولةُ تشْكو من الضغط عليها بإصدار أصوات الاستغاثة! والجميلاتُ يعْلَمْنَ أن الفوز لأحدنا مسألة حياة أو موت!. قالت أجْمَلُهُن إشفاقًا على كلينا:

- كفاية يا جماعة الطاولة ستنكسر! خلاص علمنا كلاكما فائز. أنتما متعادلان.

كان هذا لا يرضيني أبدًا، فلا بُدَّ أن أكسر شوكة هذا الطاووس صِفَةً وليس شكلًا صَهَلتُ وزأَرْتُ عليه بطريقةٍ أرْهَبَتْهُ وأفقدته تركيزه وعلى الفور قضيت عليه.

حالةٌ من الإعجاب بفارس جديد، مُخْتلطة بالإحراج والإشفاق على الزميل، انتهت بفراره ولم يَعُدْ نهائيًّا لسيرته الأولى، فقد هزَمَهُ من يلعب فقط في شَعْره! استلمت جائزة المسابقة بحالة من الفرح ونشوة النصر على هذا المغرور.

بعد يومين أتى لي أصدقائي «الأشاوس» بعنتيل ضخم! مفتول العضلات طويل القامة والذراعين! بالطبع هزَمَني في لَمْحِ البصر دون أي عناء. ولكني استعملت الهندسة في تبرير الهزيمة بمنتهى البساطة بعد حماقات وسخافات مُزاح أصدقائي:

- العَزْم، الذي هو أساس اللُّعبة، يساوي القوة مَضْروبةً بذراعها، وذراع الزميل طوله تقريبًا كان ضعف طول ذراعي وخمسة أضعاف حجمه.